بين الفصحى والعامية في الجزائر

د. خليفي سعيد
عميد كلية الآداب و اللغات
المركز الجامعي لغليزان
الجمهورية الجزائرية
khsaid48@gmail.com

لقد كانت ولاتزال حاجة الإنسان للاتصال والتفاهم ملحة، ومحاولة للبحث عن وسائل تحقق له طابعه الاجتماعي وتبلغه غايته التواصلية بين جميع الأفراد والجماعات، فكانت اللغة الصوتية هي أرقاها وأبلغها مما أهلها إلى أن تكون مركز دراسات وبحوث للعلماء قديماً وحديثاً.

وقد استعمل مصطلح اللّغة لأول مرة عند العرب في أواخر القرن الثاني للهجرة، "وكان يدل في القرن الأول على المادة اللغوية، أي ما جمعه الرواة من البادية عن العرب الفصحاء بعد ظهور اللّحن، ولم يطلق الرواة الذين اشتغلوا بجمع المعطيات اللغوية مصطلح "لغوي" إلاّ في القرن الرابع الهجري"[1]، حيث " أن العرب القدماء وفي العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم يكونوا يعبرون عما نسميه نحن باللغة إلا بكلمة اللّسان، تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى ومعظم اللغات السّامية شقيقات اللغة العربية، وقديستأنس هذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم من استعمال كلمة اللّسان وحدها وبمعنى اللغة نحو ثمان مرّات"[2]، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَ إِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ "عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[3]، وكذا في قوله تعالى:﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[4]، وفي قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[5]، وفي قوله تعالى أيضا: { وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ }[6].

واللّغة ظاهرة اجتماعية في صورة تلقائية، وهي من وضع الإنسان، يتركها السابق للاحق "فهي ليست رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه، وإنما عامل مهم للترابط بين جيل وجيل"[7]وصارت اللغة الواحدة حلقة ربط تتوارثها الأجيال المنتمية إلى المجموعة البشرية الواحدة، مما يعطيها بعدها الاجتماعي والنفسي على وجه الخصوص، وهذا ما جاء في تعريف ابن جني بأنها "أصوات يعبر بها كل قوم عنأغراضهم"[8]، ومن هنا يكون هذا التعريف شاملاً ودقيقاً، لأنه عرّف اللغة من جهة، وبيّن وظائفها من جهة أخرى، وهو المعنى الذي أكده دي سوسير فيما بعد مبيّنا بأنها مؤسسة اجتماعية، في إشارة إلى "أنها ليست فردية تتعلق بعوامل النطق وأصوات الكلام ولكنها ظاهرة سيكولوجية اجتماعية، ثقافية مكتسبة لاصقة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق اختيار معاني مقررة في الذهن، وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل"[9].

ولذلك فاللغة "ليست مجرد أداة للفكر أو تعبير عن عاطفة وإنما هي جزء من كياننا السيكولوجي، ولون من ألوان النشاط الإنساني في المجتمع، فهي عملية فيزيائية اجتماعية، ويثبت هذا أن اللغة رابط مهم بين أفراد المجتمع إذ تعبر عن حاجته، وتوحد أهدافه.

وقد كان الإنسان العربي يتكلم الفصحى بفطرته وسجيته دونما حاجة لمعرفة قواعد النّحو والصرف... إلى أن جاء القرآن الكريم، فتوسعت رقعة الأمة الناطقة باللغة العربية نتيجة الفتوحات، وبدأ اللحن يتسرب في ثنايا اللغة، مما أدى إلى تفتت الأمة العربية في لسانها، وهذا بعدما كانت لسانا واحدا ينطق بلغة القرآن، أصبحت البلاد العربية ذات ألسنة مختلفة فلكل بلد لهجة، وقد يكون هذا الاختلاف كليا، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى الظروف التي مرّ بها كل مجتمع من هذه المجتمعات، وقد اختلفت وتباينت، "فاللّهجة في الاصطلاح العلمي الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر

اللغوية التي تسيّر اتصال أفراد هذه البيئة بعضهم ببعض، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث فهما يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات"[10].

وبهذا المعنى لا نلاحظ أي اختلاف بينها وبين اللغة انطلاقا من التعريفات السابقة، إلا أن الملاحظ أيضا هو ذلك الرابط العضوي بينهما الذي ينشأ من عامل البيئة الشاملة التي تتألف من عدة لهجات فتعرف باللغة أيضا، فالعلاقة بين اللغة واللهجة هي العلاقة بين العام والخاص، فاللغة تشتمل على عدة لهجات، ولكل منها ما يختص بها ويميزها، وجميع هذه اللهجات تشترك في مجموعة من الصفات اللغوية، والعادات الكلامية التي تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات، ولعل "السبب الرئيس في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات يرجع إلى انتشار اللغة في مناطق مختلفة وواسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس"[11]، ولكنها لا تخضع لقوانين تضبطها وتحكم عباراتها لأنها تلقائية متغيرة تبعا لتغير الأجيال وتغير الظروف المحيطة بهم، وتتصل نشأتها بتاريخ اللغة العربية، ويعتبر وجود هذه الظاهرة بجانب اللغة الفصحى ظاهرة طبيعية في كل اللغات.

وهذا ما جعل الفجوة تزداد اتساعا بين الفصحى والعامية، كأن لا علاقة بينهما، إلا أن هذا التفريق بين العامية والفصحى، والفصل بينهما لأمر مجحف في حق العامية، إذ أنها دائمة اللزوم للفصحى ملازمة الظل لصاحبه.

والأمة الجزائرية باعتبار أنها جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الكبرى التي تتخذ من اللغة العربية لسانها الناطق، تعتبر هذه اللغة كما يقول الدكتور محمد العربي ولد خليفة أنها "ثقافة وحضارة، وليست عرقا أو سلالة تقبّلها الجزائريون طوعا مع الإسلام، وتفانوا في خدمتها لسانا وعلوما وآداباً منذ السنين وفي كلّ مناطق الجزائر بلا استثناء، وبالتالي ليس في الجزائر الآن ولا في الماضي طوائف وأعراق متقابلة، هناك تعدد وخصوصيات أقل بكثير مما في غيرها من البلدان يجمع ذلك التنوع وطن واحد يمكن أن يجتهد مواطنوه في حمايته، وخدمته في أي موقع يكونون فيه وفي كل الظروف وذلك

من أهم حقوق المواطنة وواجباتها"[12]، وهذا التنوع نتج عنه ظهور مجموعة من اللّهجات واللّغات العامية ذات الأصل الممتد إلى اللّغة العربية.

"وندرك، بإمعان النظر، أن اللهجات الجزائرية موجودة كلّها في اللهجات العربية القديمة، وأن ما نظنه غير عربي معظمه عريق في الفصحى. إنّما دخله تغيير ظاهر أو خفي لا يدركه السامع إلا بإعمال الفكر والرّجوع المستمر إلى المعاجم العربيّة وغير العربية وإلى الدّراسات المتخصّصة. وقد تتغيّر دلالة اللفظ الفصيح بالتوسع والمجاز والكناية والتهكم وغير ذلك من أساليب البلاغة، تتغير ضرورة لأداء معنى جديد يتطلبه العصر أو الحاجة أو للجهل بأصلها في اللغة الفصيحة"[13].

بل إن الفصحى كانت في يوم عامية من العاميات وخير ما نستدل به على وجود العاميات واللهجات في العصور القديمة نزول القرآن بعدة قراءات سواء كانت هذه القراءات سبعا أو عشراً أو أربعة عشر أو أكثر على حسب الاختلاف في الآراء بين العلماء من فهمهم للحديث:☜**أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّهَا شَافٍ، كَافٍ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**☎[14].

إنّ اللغة العربية في الجزائر، عبر مسارها التاريخي، ومن خلال ما مرت به أيام الحقبة الاستعمارية، قد شهدت تراجعا ملحوظا، مما أدى بها إلى الدخول في دوامة مغلقة يصعب الخروج منها جعلها تواجه الازدواجية، حيث أصبحت تزاحمها اللّغات الأجنبية كالفرنسية والإسبانية والإنجليزية وغيرها ... وكذا العاميات التي تتعدد بتعدد الأقطار العربية، فاللّغة هي مرآة عاكسة لشخصية الفرد من أي بلد، بحيث نجد أن الجزائري قد تشبث بلغته وعاملها بحنان كما تعامل الأم طفلها، حتى صارت جزءا من الكيان لا ينفصل عن الشخصية الوطنية الجزائرية، وأصبحت لتغلغلها في النفوس ولمكانتها هي الوسيلة والأداة في التعامل بكل المجالات الإدارية والعسكرية، خلال فترة الاحتلال تحديدا، فكانت جميع الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية تصاغ بالعربية، ومن أمثلة ذلك، الوثائق المتبادلة بين الأمير عبد القادر والعسكريين الفرنسيين وهي الآن محفوظة بالمكتبة الوطنية، لتثبت أن العربية ارتقت فوق اللّهجات، وكانت دائما في الجزائر وعبر كل العصور لغة الدولة والدّين والوطن،

"والاستعمار الفرنسي الذي تمطى بصلبه، واردف أعجازا، وناء بكلكله على الشعب الجزائري زهاء مائة وثلاثين عاماً لم يستطع أن يمحو كلمة واحدة من لغة الشعب، فغادر هذا البلد خائبا، والعربية أقوى مما وجدها"[15].

فاللغة العربية إذن تعد الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الشخصية الجزائرية، كما أنها وسيلة لتبادل المنافع وسير الأمور وهي لغة الجزائري في جميع مجالاته اليومية، بل تعد مقوماً أساسياً من مقومات الشعب الجزائري، وهو الشعار الذي رفعه عميد المصلحين الجزائريين، ورائد النهضة الفكرية الجزائرية الحديثة، الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله: "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، وظل هذا الشعار مرفوعا خلال فترة الاستعمار الفرنسي الغاشم وحملته الأجيال بعد الاستقلال وسيظل كذلك بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن لا بد لهذا الشعار من تجسيد على أرض الواقع "لذلك نجد كتابات الشيخ الإمام ابن باديس والشيخ الإبراهيمي ومبارك الميلي وغيرهم تعنى بشرح الاتجاه الفكري والتربوي الذي يجب أن يتبناه التعليم ويستفيد منه تعليم العربية لأن النظرة إلى اللّغة في مفهوم البشير الإبراهيمي مثلاً، يجب أن تتغير بحيث تتطابق مع حقيقة اللغة العربية والوظائف الحية التي يجب أن تضطلع بها شأنها شأن كل لغة حية في وطنها"[16].

وإذا كانت اللغة ابنة المجتمع تتطور معه إذا تطور، وتتأخر إذا تأخر، فإن الذي يبحث في "الحصيلة اللغوية التي يتكلم بها الشعب الجزائري يجد بأنها تختلف بين جيل وجيل، فحصيلته اللغوية أثناء القرن التاسع عشر، ليست هي حصيلته اللغوية أثناء النصف الأول من القرن الماضي، ومثل ذلك يقال في المادة اللّغوية التي يستمد منها الشعب التعبير عن أغراضه وعواطفه بعد الاستقلال"[17].

وواقعنا اللغوي الجزائري واقع متعدد اللّغات، فإلى جانب اللغة العربية الفصيحة نجد اللّهجات الأمازيغية، وهي كثيرة منها القبائلية، الشاوية، التارقية، المزابية، الزناتية...

مما يؤكد أن العربية الفصحى لم تبق على حالها وإنّما دخلت عليها عدة لهجات ولغات أخرى، حيث أن هذا الأمر يعود عليها بالتأثير السلبي في كثير من الأحيان.

والعامية الجزائرية في هيكلها العام تتمثل في تعددهذه اللّهجات غير أنها "تختلف من جهة إلى جهة، بل أحيانا تختلف من قرية إلى قرية مجاورة لها وهذه اللهجات تخضع لعوامل لغوية كثيرة، منها ما ينشأ عن الوراثة والطبيعة، ومنها ما ينشأ عن البيئة والجوار، ومنها ما ينشأ عن الاختلاف الناشئ عن اختلاف الجنس واللغة والطبيعة الفيزيولوجية نفسها، فاللغات تتأثر وتؤثر، كما يتأثر ويؤثر الناطقون بها"[18].

واللّغة العامية هي اللّغة التي يكتسبها المرء عندما يبدأ الكلام، فهي لغة الحياة اليومية بالنسبة لكل فئات المجتمع على اختلاف مستوياتهم ودرجاتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية، وبما أن اللغة العامية هي اللّغة الأم، فهي لغة كل فرد جزائري، ولو أردنا أن نعرف عدد الناطقين بها،لوجب علينا إحصاء عدد الشعب الجزائري، وذلك من خلال فئتين اجتماعيتين، الأولى لغتها الأم الفرنسية، وتتمثل أساسا في الفئة التي ترعرعت إبان الاستعمار الفرنسي،أو كانت قريبة منه، أو من مؤسساته المختلفة، فتشبعت بالثقافة الفرنسية،أما الثانية فتحظى بشعبية كبيرة وهي الفئة الناطقة بالأمازيغية، وهم السكان الأصليون للجزائر، الذين أحبوا اللغة العربية واعتنقوها ودافعوا عنها، بل إنّالكثيرين منهم،وخاصة فئة المثقفين الذين اعتبروها لغتهم التي يتعبدون بها وينجزون بواسطتها مختلف أبحاثهم وكتاباتهم،وهكذا انتشرت واتسع نطاقها في المغرب العربي بعد الفتح الاسلامي، "فتجاوب معها البربر الأمازيغ، أولا لأنها لغة الاسلام الذي آمنوا به، وثانيا لأنها ليست غريبة عن لغتهم الأمازيغية، واستمر الأمازيغ في خدمة اللغة العربية، إيمانا منهم بأنها لغتهم ولا يوجد بديل لها. ثم جاء بنو هلال فامتزجوا بإخوانهم الأمازيغ، وكونوا معهم المجتمع العربي المسلم، بل وانتشرت لهجات يمينة ظفارية مثل نطق القاف كافا في جيجل والغزوات وطولكرم في فلسطين، ومثل نطق الغين قافا في الأغواط، وغيرها من اللهجات المنحدرة من القبائل العربية التي رافقت الفتح. وجاء الفرنسيون المحتلون فأوقفوا تعليم اللغة العربية، فلجأ الجزائريون للتعبير عن وجدانهم ومقاومتهم للمحتل إلى العامية والشعر الملحون، كانت

العامية قبل الاستقلال راقية غير مشوهة قريبة جدا من الفصحى، ولم يتسرب لها التشويه إلا في عهد الاستقلال، بحيث صارت لجهة مِسخا، خليطا من الكلمات العربية والكلمات الفرنسية، سماها اللوبي الفرنكفوني المتحكم في الدولة الجزائرية [العربية الجزائرية] وطالب بترسيمها بدل الفصحى"[19].

ولكن رغم انتشار اللهجات الأمازيغية واللغة الفرنسية في الجزائر، إلا أن اللغة العامية الجزائرية تظل أكثر انتشارا منها، فهي لغة البيت والشارع والمصنع والمدرسة في بعض الأحيان... ومن المعروف أن العربية الفصحى هي لغة العلم، إلا أنه قد يستعمل المعلم العامية في قسمه لأسباب عديدة "كتفسيره لبعض الأمور التي قد يصعب على الطفل فهمها وخاصة في السنوات الأولى من الطور الأول نضرب لذلك أمثلة من السنة الثانية من التعليم الأساسي في كتاب القراءة للتلميذ أقرأ وأتعلم"[20]، فالعامية هنا ليست بديلاً للغة العربية ولكنها وسيلة مساعدة وأداة تعليمية في المراحل الأولى من التعليم، وهذا من أجل إيصال الفكرة للتلميذ الذي دأب على النطق بالعامية والتعامل بها منذ نعومة أظافره، وعاميتنا الجزائرية كغيرها من العاميات تختلف من منطقة إلى أخرى حيثنجد مثلا في منطقة الشرق الجزائري مدنا متعددة متشابهة لهجتها في أهم الخصائص، ومختلفة في بعضها الآخر، نذكر منها لهجة كل من سوق أهراس وتبسة وعنّابة، الواقعة في أقصى الشرق الجزائري وبالذات في الحدود التونسية، إذ هي أقرب للهجة التونسيين منه إلى لهجة الجزائريين، التي تأثرت في لغتها بتونس فأصبحت ممزوجة بين الجزائرية والتونسية، وكذا الشأن بالنسبة لمدينة مغنية وبشار والعين الصفراء المحاذية للحدود المغربية، وهلم جرَّ...، وهذا ما يؤكد أن اللغة مثل الكائن الحي، تتأثر بغيرها من اللغات المجاورة فتأخذ منها وتمنحها.

خاتمة :

إن هذه التعريفات، وإن تعددت فقد اتفقت على أنّ اللّغة ذلك النّموذج المثالي الذي يحاول كل فرد أن يحذو حذوه نطقا وكتابة، وتؤكد في قولنا الحقيقة الثابتة في ختام هذه المداخلة أن العربية الفصحى هي إرث عظيم تركه أجيال الأمس إلى أجيال اليوم والغد، إذ أنها لغة صالحة لكل العصور، كونها تمتلك أسساً وطرائق تجعلها حيّة مستمرة ونافعة عبر كل الأزمنة كالقياس والاشتقاق والنحت والترادف والتضاد وغيرها...

ولقد كان للقرآن الكريم الفضل الكبير في جعل اللغة العربية حيّة، ولم تمت طوال هذه القرون كما حدث لمثيلاتها اللاتينية والسلافية والجرمانية وغيرها، نظراً لحاجتنا لها في قراءة القرآن والصّلاة وجل العبادات الأخرى.

وعلى الرّغم مما يقال عن العامية الجزائرية من أنها ذات مستويات أقل ما يقال عنها أنها لا ترقى إلى حمل الدلالات العميقة من النّاحية التركيبية أو الدّلالية أو حتى الصوتية، كما هو الشأن بالنسبة للفصحى، إلاّ أنها تمتلك تراثاً شعبياً ثرياً وخالداً في كل الأجناس الأدبية والفنيّة بما تحمله في طيّاتها من أسباب البقاء وإثبات الوجود لكل فرد من أفراد الأمة الجزائرية العريقة.

ومن الواضح أن اللّغة العربية الفصحى مهما أثرت وتأثرت، إلا أنها ما زالت تحافظ على مكانتها وعلى قواعدها ومبادئها الأساسية، طالما هناك في الجهات الرسمية وغير الرسمية التي تظل تعمل جاهدة على تأصيلها وترسيخها عن طريق الاستعمال والتحصيل المباشر في مختلف المجالات والمؤسسات، وعلى رأسها المجلس الأعلى للّغة العربية في الجزائر الذي ظلّ يسهر على ترقيتها والنهوض بها على جميع المستويات.

هوامش وإحالات:

1) سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتهما في استعمالات الناطقين الجزائريين، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011، ص55.

2) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1955، ص17.

3) سورة الشعراء، الآية (195).

4) سورة إبراهيم، الآية (04).

5) سورة النحل، الآية (103).

6) سورة الأحقاف، الآية (12).

7) محمد عبد الله عطوت، اللغة الفصحى والعامية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص19.

8) ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، دار الكتب المصرية، تح محمد علي النجار، ج1، ط1، 1952، ص33.

9) إميل بديع يعقوب، فصول في فقه اللغة العربية، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2008، ص9.

10)إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ص16.

11) م.ن، ص.ن.

12) محمد العربي ولد خليفة، أداء العربية في الاعلام المسموع، الإذاعة الوطنية وترقية أداء اللّغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية، الجزائر، 2009، ص32–33 .

13) مختار نويوات، الصّلة بين العربية الفصحى وعاميتها بالجزائر "المعالم الكبرى"، الفصحى وعامياتها، لغة التخاطب بين التقريب والتهذيب، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، دار الخلدونية للطبع والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1429–2008، ص132.

14) رواه البخاري ومسلم.

15) عبد الجليل مرتاض،الظاهرة اللّسانية لانتشار الفصحى إلى عاميات،الفصحوعامياتها،ص252.

16) عبد القادر فوضيل، دور جمعية العماء المسلمين الجزائريين في الدفاع عن اللغة العربية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي لبلادنا – أشكال الصمود والمقاومة، المجتمع المدني وترقية استعمال اللغة العربية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الأبيار، الجزائر، د.ط، 2007، ص50–51.

17) عبد الجليل مرتاض، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 1981، ص08.

18) م.ن، ص07.

19) عثمان سعدي، اللغة العربية واللهجات المتفرعة عنها – مقارنة بين عامية الجزائر قبل الاستقلال وبعده، الفصحى وعامياتها، ص111.

20) سهام مادن، الفصحى والعامية وعلاقتها في استعمالات الناطقين الجزائريين، ص63.